

المحاضرة رقم 07:

إشكالية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

1- تمهيد:

عمل الاستعمار الفرنسي على تحطيم المقومات الحضارية للمجتمع الجزائري بشتى السبل والوسائل المتاحة لديه. فقد احتل شعبا كان على قدر من الانتماء العقيدى والعربي، و" لم تكن الأمة سائدة في الأوساط الجزائرية، قبل مصيبة الاحتلال سنة 1830 فكانت الكتايب (3000) وكانت المساجد والزوايا تقوم بمهمتها في تعليم الأمة وتنشئتها التنشئة العربية الدينية الصالحة." (1) وسخرت كل الإمكانيات المادية والثقافية من أجل ضرب الهوية بمختلف مكوناتها. " إن الأسطورة الاستعمارية حجت مدة طويلة معطيات الصراع الفرنسي – الجزائري، وكانت وظيفة تلك الأسطورة المتغلغلة في العقلية الجماعية تبرير الهيمنة الفرنسية بعنوان إدخال الحضارة لشعب يعيش حالة الهمجية. ومن المعلوم أن الاستعمار لم يدخل البلاد على أساس تطوير الجزائريين. بل من أجل استغلال الموارد الطبيعية والبشرية الجزائرية لصالح الرأسمال الفرنسي وممثليه في البلاد، المعمرين." (2) وفي ضوء هذا الوضع البائس صنعت فرنسا البدائل التي يمكن أن تعمل على نشر الثقافة الفرنسية لتكون في مكان العربية. وسخرت مواردها المادية والبشرية في ذلك، وشجعت على التعليم، واكتساب المعارف، ولكن حسب ما تريده هي " ثم أخذت الحكومة الاستعمارية تفتح أبواب المدارس شيئا فشيئا أمام أبناء الجزائريين، منذ سنة 1883، لكن التعليم كان - ولا يزال - فرنسيا بحتا، لا عربيا ولا جزائريا، فاللغة الفرنسية هي لغة الوطن، وبلاد فرنسا فيه هي الوطن، وتاريخ فرنسا فيه هو تاريخ الوطن، وهكذا..." (3)

والأدب صورة للمجتمع الذي ينتمي إليه. ولا يمكن أن يستغني أي أديب عن ممارسة هذا الأمر، لأن عمل الأديب انعكاس لمختلف التجارب التي عاشها، أو عايشها في ذلك المجتمع. ومن هذا، يمكن له الاحتفاظ بمختلف الصور الواقعية، أو التخيلية التي التصقت بذهنه. فهو يستحضرها باستمرار، ويعيد تشكيلها كلما دعت الحاجة إليها. وإذا نظرنا بعين التفحص إلى الحمولة الواقعية الموجودة في الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية (Littérature Maghrébine D'expression Française) نجد صوت المجتمع، وصوت الإنسان الذي يحمل بين جوانحه آلامه، وأماله فيظل حبيس المتغيرات الحياتية التي عاشها جراء الاحتلال الفرنسي سنوات طويلة.

ولعل حاجة الأديب إلى لغة يكتب، ويعبر بها كانت هي بداية الإشكال الذي ظل المتخصصون في النقد الأدبي يطرحونه دون كلل. ذلك أن كل أمة تكتسب لغتها، وتعلن

انتماها لها من دون أي تعقيد أو مواربة. واللغة التي كتبت بها فئة من الأدباء - أيام الاحتلال، وبعد الاستقلال - هي الفرنسية؛ بل إنها عُدت مكونا ثقافيا لشخصياتهم؛ ذلك أنهم تعلموها في مقتبل أعمارهم في المدارس الفرنسية؛ من منطلق أن ذلك الاحتلال الشنيع - في الجزائر مثلا - سعى إلى نشر لغته " فاللغة تساعدهم على بث أفكارهم مثلما تساعدهم القوة العسكرية في توطيد حكمهم. وكلاهما يخدم الهدف الذي جاءوا من أجله وهو السيطرة المادية والروحية على الشعب الجزائري. فاللغة هنا لا تقوم بوظيفة تعليمية ثقافية روحية ونفسية، ولكن تقوم بغسل العقل وجعله مستعدا لتقبل الهيمنة الأجنبية والاحتواء الحضاري." (4). وقد كانت المدارس تمارس هذا النشاط بشكل متقن وفعال خاصة إذا كان الأمر متعلقا بالأطفال الصغار.

فكل النوايا المبيته كانت حاضرة مع الهجوم الفرنسي على الجزائر، وباقي الأوطان العربية الأخرى في المغرب العربي." ومن البداية كانت النية واضحة في فرنسا الشعب الجزائري، فإلى جانب تصويت البرلمان الفرنسي على اعتبار الجزائر جزءا من فرنسا، كان التعليم يخدم هذا الهدف الرهيب، والأمر نفسه حاولوه في تونس والمغرب وموريطانيا مع تقارب في الأساليب والطرق وظروف الاستعمار والفرق في التسمية بين هذا القطر أو ذاك مما هو معروف لدى الجميع" (5). وفي مقابل هذه الهيمنة الثقافية، ومحاولات طمس معالم الهوية الجزائرية في عروبتها، ودينها، وثقافتها " كان الحفاظ على العربية المطلب الدائم لدى كل الحركات والأحزاب والتكتلات. ويعتبر عبد القادر الجزائري، هو أيضا، أحد المساهمين في مجال المقاومة الثقافية في الجزائر. ففي تلمسان وحدها، أيام عبد القادر، وُجدت خمسون مدرسة ابتدائية ومعهدان كبيران للتعليم الثانوي والعالي هما: مدرسة الجامع الأعظم ومدرسة أولاد الإيمان. وكانت هذه المدارس تمنح بإشرافه جوائز للمتفوقين." (6). واستمرت السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بشكل خاص، وكان مسارها يعمل على مبدئين: المبدأ الأول هو استغلال خيرات الأرض، والمبدأ الثاني هو تنشئة الأجيال على تبني اللغة الفرنسية بحمولاتها الثقافية والدينية" وأمام الموجات الثقافية التي أخذت تندفق بكثرة من المدارس الفرنسية بدأ يغزو الوسط الجزائري طوفان خطير من الإلحاد في الدين، والانسلاخ من القومية، وكانت أعداد هؤلاء المثقفين تتكاثر مع انتشار الوعي القومي في وجوب تعليم الأجيال الصاعدة. ولقد ظهر من بين الكتاب الصحفيين الجزائريين من عني بهذه الظاهرة الخطيرة، وأولها اهتمامه البالغ. ولعل أصلب الكتاب وقوفا أمام هذه التيارات الغربية كاتب تشرّب مبادئ مجلة الفتح لمحِب الدين الخطيب يدعى أبو اليقظان." (7).

2- الازدواج اللغوي في الجزائر:

وفي المجال الأدبي كانت خاصية الازدواج اللغوي لدى الكتاب أمرا مميزا؛ نظرا لكون هذه الظاهرة لم تحدث في بقية البلدان العربية في المشرق. بل إن الأمر استفحل في الشمال

الإفريقي، ونقصد ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب الأقصى. ذلك أن السياسة الاستعمارية كما ألمحنا سابقا كان غرضها تدميريا؛ في جانب الهوية بشكل عام. " ومحاولة فرنسة وإدماج الشعب الجزائري، كل هذا أوجد ظاهرة الازدواجية في الأدب الجزائري. " (8). لقد تكالبت الأمم الاستعمارية على الشمال الإفريقي، وبلدان المشرق العربي قرونا طويلة، وكل مستعمر كانت له صولات، وجولات في إعلان الحرب، والإبادة، ولكن مع الاختلاف والتميز بين واحد وآخر. " ولم تعرف الأقطار العربية الأخرى هذا الوضع. فاللغة العربية، وإن أصابها الجمود في فترة معينة أثناء الحكم العثماني أو الاستعمار الفرنسي، فإنها لم تتعرض للتدمير والمنع بحكم القانون، كما هو الشأن بالنسبة لها في الجزائر. وكل ما تعرضت له أحيانا هو وضعها في المقام الثاني في المدارس مثلا كما في بعض فترات الاحتلال الإنجليزي في مصر... وكذلك الأمر في فرض اللغة الفرنسية في سوريا، إلى جانب أو على حساب اللغة العربية، ولكنها لم تطغ على اللغة الأصلية أبدا" (9).

وقد يكون التعدد اللغوي من دواعي الازدهار، والرقى الحضاري لو أحسن توظيفه في المسار الثقافي الصحيح، ولكن ما حصل في الجزائر، وبلدان المغرب العربي كان نقيض هذا الطرح، فاحتدام الصراع بين أصحاب اللسان الفرنسي والعربي ما نزال نعاني من نتائجه إلى يومنا هذا، بدعوى أن العربية لا يمكن أن تصنع الرقي العلمي والحضاري، وأن الفرنسية هي الجديرة بذلك، و" إذا تعلق الأمر بالطرف الفرنسي فليس هناك حكم قيمة بل هناك معاينة للدمار الشامل الذي حل بالجزائر في حقبة حالكة من تاريخها، فلن نكون أول ولا آخر من يحمل الطرف الفرنسي الاعتداء المتواصل لأكثر من قرن وثلاث على أرض الأجداد وعرضهم، وهدم البنية الثقافية والاجتماعية، وفق خطة شيطانية محكمة من مضاعفاتها جعل اللغة الفرنسية - كما يقول إبراهيم سعدي - عوض أن تكون غنيمة حرب على حد تعبير كاتب ياسين تتحول إلى أداة صراع وتفكيك داخل المجتمع. (10).

وأفرز الأمر في الأخير ظاهرة الاستلاب الثقافي، والاعتراب، والازدواجية اللغوية، وتباين الأمزجة في المجتمع الواحد، وتلك أفضع النتائج التي جنتها هذه الشعوب، وورثتها أجيالها لاحقا " والصراع الثقافي الذي نعيشه اليوم له جذور في الماضي، بل إن الماضي هو السبب فيما تعانیه ثقافتنا من تهميش وابتسار وتذبذب في الوظيفة وفي الرؤية وفي اضطراب الرؤية وفي اضطراب النظرة وما يعانیه أيضا المتفقون الوطنيون من التجاهل والتغيب" (11). وفي مقابل هذه النخبة هناك نوع ثان يعمل على خط مناقض؛ وكُتابه يميلون إلى قراءات مغايرة لما هو سائد سواء للجانب التاريخي، أو جانب الانتماء والهوية، والجانب العقيدي أحيانا. " لأن الغربة التي يعانون منها والاستلاب الذي حجب عنهم الرؤية التاريخية قد جعلهم هذا كله يتكروون لجذورهم وتلك مأساتهم ومأساة الثقافة معهم، لقد أدى بهم الأمر إلى معادات الثوابت الوطنية وفي مقدمتها اللغة العربية التي هي عنوان الثقافة ورمزها الأصيل. " (12)

وفي ظل تشابه ظروف الهجرة، وتشابه الواقع الاجتماعي في أحيان كثيرة بين هؤلاء الكتاب المهاجرين، تتبلور في إبداعاتهم جملة من القواسم المشتركة. وعلى هذا الأساس يكون " هناك عدد من الموضوعات المشتركة التي يمكن أن يعثر عليها الباحث في كتابات إفريقيا الشمالية. ومن ذلك الهجرة إلى فرنسا التي سببها فقر الجزائر رغم أنها بلد منتج، والصراع الطبقي هناك سواء كان بين العرب أنفسهم أو بينهم وبين الأوربيين، والنزاع الذي لا ينتهي بين القديم والحديث أو بين التقليد والتقدم." (13) وإذا كانت الكتابة الأدبية هي التعبير عن مختلف حاجات النفس البشرية في تفاعلها مع محيطها الاجتماعي، والمؤثرات الثقافية والحضارية والتاريخية. فإن للتجربة المعيشة سلطة نافذة في موضوع الكتابة. فهي الخزان الذي يموج بالآلام، والأمل، والرؤى والتصورات التي تُنتج من التفاصيل البسيطة صورة للواقع الإنساني. " وفي كثير من الأحيان نجد هذه الرحلة إلى فرنسا (مهما كان هدفها) تشكل الأساس في المحاولة الأدبية الأولى لهؤلاء الكتاب. لذلك نجد أن أول عمل يكتبه أديب من إفريقيا الشمالية هو عادة ترجمة شخصية يفصح فيها عن انتمائه الثنائي إلى عالمين مختلفين كما يعبر فيها عن ألمه من عدم استطاعته أن يجد مكانا في أي من هذين العالمين." (14).

2- الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية:

وحيث ننتبع مسار الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، نجد أن البدايات لم تكن مثل النهايات، لأن السياقات الثقافية والسياسية والاجتماعية والحضارية تتغير من وقت إلى آخر. لقد ظهر هذا الشكل التعبيري المكتوب بالفرنسية في بداية الخمسينات، وهو أدب يستحق الاهتمام من الناحية الجمالية، وذلك بفضل إصدار دار الطبع (Seuil). فقد كان جمهور القراء قليلا وكثير شيئا فشيئا بفضلها. (15)

وبدأ السؤال يلح على ساحة الأدب الفرنسي بظهور ذلك النمط، الذي أصبح يزاحم النص الفرنسي في خصائصه الشكلية. " وفي عام 1953 قامت مجلة الأخبار الأدبية (Les Nouvelles Littéraires) باستفتاء حول هذا السؤال: هل هناك مدرسة أدبية شمال إفريقية؟ وواضح من السؤال أن واضعه يتصور أن الأدب الذي ينتجه كتاب شمال إفريقية باللغة الفرنسية إنما هو جزء من الأدب الفرنسي، ولكنه يتميز بطابع خاص يجعله خليقا بأن يُعد مدرسة قائمة بنفسها من مدارس الأدب الفرنسي." (16)

وكان السؤال تعقبه الإجابة، وإجابة معظم الأدباء هي النفي القاطع أن يكون ذلك الأدب فرنسياً" وكانت الأجوبة التي أجاب بها كتاب شمال إفريقية عن هذا السؤال تشير جميعها إلى أن تسمية الأدب بأنه مدرسة جديدة من مدارس الأدب الفرنسي هو إطلاق اسم خطأ على واقع لا شك فيه، هو هذا الازدهار الكبير في أدب المغرب العربي عامة، وفي أدب الجزائر خاصة. ومعنى ذلك أن هذا الأدب المغربي ليس من الأدب الفرنسي في شيء، وإنما هو أدب عربي كان مضطرا إلى استعارة اللسان الفرنسي، لظروف يعلمها الفرنسيون قبل

غيرهم." (17). وعلى الرغم من كون هؤلاء الأدباء استشعروا الطمأنينة لما يكتبون في أول الأمر إلا أن الهواجس بدأت تستبد بأنفسهم " وواقع الأمر أن أدباء الجزائر الذين عبروا بلغة فرنسية لم يحسوا بهذه الازدواجية، ولم يشعروا بهذه المأساة قبل الثورة لأن هذا الأدب لم تتضح معالمه قبل هذا الوقت ولم يكن محل نقاش بسبب أن اللغة الفرنسية هي التي كانت المسيطرة على الحياة في شتى مظاهرها." (18). ولا يبقى الدهر على شاكلة واحدة، لأن سنن الحياة تتغير من حقبة إلى أخرى؛ ذلك أن المجتمع الجزائري مثلاً بعد الاستقلال سعى إلى تكريس سيادته، ووضع دستوره السياسي الذي يقر فيه مكونات الهوية، من لغة، ودين، وتاريخ،... " ومن ثمّ كان لا بد أن يقف الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية موقف الاتهام، لأن الإحساس القومي الذي نما بين أفراد الشعب منذ مدة طويلة قد بلغ القمة في الثورة، وصاحب ذلك رد ضعيف ضد ما حمله الاستعمار من تقاليد وأفكار وثقافة وأدب" (19) وقد وجد الطرح الذي لا يميّز بين الكتاب العرب بالفرنسية والكتاب الفرنسيين؛ لأن وسيلة التعبير واحدة. ولكن بقليل من الموضوعية ندرك أن الفرق بين المحتويين واضح وجلي فلا تشابه بين ما كتبه محمد ديب في ثلاثيته: الدار الكبيرة - الحريق - النول. وبين ما كتبه (ألبير كامو)، " وهذا الفرق يتمثل في الرؤية. ف رؤية الكتاب الفرنسيين تختلف تماماً عن رؤية الكتاب الجزائريين ذوي اللسان الفرنسي." (20). ولا يمكن أن ننفي الإحساس المغاربي والجزائري بشكل أخص من إبداع هؤلاء الكتاب. فقلوبهم ينبض بمآسي المجتمع الرازح تحت قهر المحتل، الذي سلبه خيرات بلاده، وتركه فريسة للجوع. فامتلات روحهم بالأسى من جهة، وبحب الرفض والتطلع إلى غد أفضل" فهم بالرغم من أنهم لم يكونوا يصطنعون غير هذه اللغة في التعبير عن آرائهم، وأفكارهم ونظراتهم إلى الوجود، ومذاهبهم في الحياة، فإن هذه الآراء في حد ذاتها لم تكن تعدم في كثير من عناصرها، وأصولها الروح الجزائرية النابض" (21). ومن أقصى الأرض الجزائرية إلى أقصاها كان الوجدان واحداً، يخزن تجارب الجزائري المليئة بالقهر، والذل، والمهانة، والاحتقار. وفي مقابل ذلك الشعور الجارف نحو الحياة بكل عنفوانها، وألقها" فقد كان الذين يكتبون منهم عن الحياة في فرنسا مثلاً، يحتالون في أن يتحدثوا عن موضوع له صلة قوية، أو ضعيفة بحياة الجزائريين هناك، كما نجد في رواية (رصيف الأزهار لم يعد يجيب) أما الذي كان يعالج الحياة في القبائل الكبرى، أو الحياة الجزائرية في غير القبائل من أرض الوطن، فإنك لا ريب تشعر وأنت تقرأ ما كتب، بأن الشخصية الجزائرية تتجلى بقوة ووضوح في هذا الأدب." (22). واستطاع هذا الصوت الجزائري المعبر عن وجوده ضمن محافل الأدب والأدباء من شتى أصقاع الأرض أن يوصل صرخته إلى امتدادات شاسعة. وفي شهادة نقاد المشرق العربي على إبداعية أدباء الجزائر خير دليل، يقول شكري عياد: " وقد أتيح لقراء العربية في السنوات الأخيرة أن يطلعوا على جانب هام من إنتاج الأدباء الجزائريين حين ترجم بعض هذا الإنتاج عن اللغة الفرنسية التي يتخذها معظمهم أداة للتعبير. فرأينا في أعمال (محمد

ديب) مفهوماً جديداً للواقعية. إن محمد ديب يصور الإنسان في أقصى الظروف: يصوره مطارداً بالجوع، ذلك الجبار الذي يستل من الإنسان إنسانيته حتى يحيله إلى بهيمة، ولكن ناس محمد ديب لا يهدر الجوع إنسانيته، بل إننا لنرى صورهم في ضوء عجيب. (23).

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نشير إلى شدة البؤس النفسي الذي عاشه الأديب الجزائري مالك حداد، الذي كتب أفضل الأشعار والروايات باللغة الفرنسية أيام الاحتلال الفرنسي. وبعد الاستقلال أستبد به الألم، والاعتراب النفسي؛ فلم تعد الفرنسية تغريه بأساليبها، وموسيقاها، بل إن أسفه كان بسبب عدم قدرته التعبير باللغة العربية. فكتب شيئاً من يأسه حول الأمر في روايته سَاهُك غزالة: اللغة العربية حاجز بيني وبين وطني أشد وأقوى من حاجز البحر الأبيض المتوسط. وأنا عاجز عن أن أعبر بالعربية عما أشعر به بالعربية... إن الفرنسية لمنفاي."

هوامش:

- (1) أحمد توفيق المدني. هذه هي الجزائر.
- (2) محمد حربي: الثورة الجزائرية سنوات المخاض. ترجمة: نجيب عياد. صالح المثلوثي. سلسلة صاد.
- (3) أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر.
- (4) عبد الله ركيبي: الفرانكفونية مشرقاً وغرباً.
- (5) عبد الله ركيبي: الفرانكفونية مشرقاً وغرباً.
- (6) نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير.
- (7) محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية. نشأتها. تطورها. أعلامها. من 1903 إلى 1931.
- (8) عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة.
- (9) عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة.
- (10) محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية.
- (11) عبد الله ركيبي: الهوية بين الثقافة والديمقراطية – دراسات ومقالات .
- (12) عبد الله ركيبي: الهوية بين الثقافة والديمقراطية – دراسات ومقالات.
- (13) أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث.
- (14) أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث.
- (15) Jaen Déjeux : La Littérature Maghrébine D'expression Française.
- (16) محمد ديب: الدار الكبيرة. ترجمة: سامي الدروبي. مقدمة المترجم.
- (17) محمد ديب: الدار الكبيرة. ترجمة: سامي الدروبي. مقدمة المترجم.
- (18) الركيبي: القصة الجزائرية القصيرة.
- (19) الركيبي: القصة الجزائرية القصيرة.
- (20) الركيبي: القصة الجزائرية القصيرة.
- (21) عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر. 1925-1954.
- (22) عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر. 1925-1954.
- (23) شكري محمد عياد: دراسة نقدية للمجموعة القصصية نفوس ثائرة لعبد الله ركيبي